مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: التراكيب اللغوية المتعلقة بالوجه في ضوء النظم القرآني
اسم الكاتب: نصرالدين إبراهيم أحمد حسين، محمد محمد صافي
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/8879
تاريخ الاسترداد: 2026/07/24 09:04 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

المجلد 12 ، العدد 2

ربيع الأول 1437 هـ / ديسمبر 2015 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

□□□□□□□ □□□□.indd 1 3/6/16 11:45 AM

التراكيب اللغوية المتعلقة بالوجه في ضوء النظم القرآني

نصرالدين إبراهيم أحمد حسين

كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانيّة - الجامعة الإسلاميّة العالميّة ماليزيا

كوالالمبور - ماليزيا

محمد محمد صافي

المدرسة الأمريكية للإبداع العلمي

الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

تاريخ الاستلام 2014-12-04 **تاريخ القبول 2015-02-03**

ملخص البحث

يتناول- هذا البحث – دراسة بلاغيّة للتعابير والتراكيب اللغوية المتعلقة بأعضاء جسم الإنسان التي جاء ذكرها في القرآن، وركّز خاصة على التراكيب والتعابير التي تمسّ: الرأس والناصية، وقد وردت تعابير كثيرة في القرآن الكريم تصف هذا الجانب وصفا بلاغيّاً بارعاً. وهو – على حسب ظني – جديد في ثوبه من حيث جمعه للعبارات المتعلقة بأعضاء جسم الإنسان، خاصة الرأس والناصية، ودراستها بلاغيّاً بتسليط أضواء فنون البلاغة عليه للوقوف على الدلالات والمعاني واللطائف التي تحملها بين طيّاتها. وتتجلى أهميته من خلال فتح أعين المتدبرين في نصوص التنزيل وتوجيهها إلى عظمة هذا الحقل الدلالي الواسع المتمثل في حركات الجسم البشري، وهيئاته التي وظّفها البيان القرآني خير توظيف للتعبير عن مكنونات الإنسان ومضمراته، وانفعالاته وخواطره، وأفعاله الإرادية، وغير الإرادية، ثم بيان لطائف الأثواب البيانيّة التي أُلبستها في النص المعجز. وبيان الفروق الجمالية الدقيقة التي ما كان لقارئ القرآن أن يتذوقها لولا ورودها في ذلك الثوب اللغوي الأخّاذ. وهو بذلك يجلي السبق القرآني في كيفية استعمال تقنيات تعابير الجسم وتوظيفها.

الكلمات الدالة: التراكيب اللغوية، الوجه، النظم القرآني، البلاغة.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 72 3/6/16 11:44 AM

مقدمة :

حفل البيانُ القرآني بتعابير متعدّدة تصف الوجه، وتتحدّث عنه، وتستعمله للتعبير عن معان، ودلالات متنوّعة؛ ذلك لأنّ الوجه هو عنوانُ الذّات الإنسانية، وهو وحده الذي يتحدّثُ عن ذات الإنسان، ويدلُّ عليه؛ فالنّاسُ يتشابهون أجسادًا، ولكن الذي يُفرّقُ بين إنسان وإنسان هو الوجه الذي يجعلُ لكل إنسانٍ صورته التي يُعرَفُ بها بين الناس. إنّ الوجه هو الذّات الإنسانية بكل مُشخّصاتها ومقوّماتها، ولهذا كان له هذا الشّأنُ في الدّنيا حيث يُعبّر به عن صاحبه في الدّنيا كقولهم: فلانٌ وجهُ قومه، وهو وجهُ قبيلته، والملأ من النّاس وُجوههم، وكذلك يُسَلّط عليه الضّوء في الآخرة في مواقف الحساب والجزاء؛ فكل ما يلقاه الإنسان يوم القيامة من نعيم وحبور أو من توبيخ وتعذيب يتجلّى في قسمات وجهه، وصفحة جبهته، ونظرات عيونه، وبالجملة فالوجه مرآةُ صاحبه. ولا شك أن هذه التعبيرات القرآنيّة تشكل- أحياناً- صعوبة في الاستيعاب والفهم العميق لما تحمله من دلالات بلاغيّة خفيّة تحتاج إلى شرح وتوضيح، وهذه تمثل مشكلة البحث والدراسة. ولعل أسئلة البحث هي قائمة في تلك الاستعمالات والتعبيرات التي وصف بها القرآن الكريم الوجه، وما دلالاتها البلاغيّة والفنيّة. ومنهجنا في هذه الدراسة هو منهج استقرائي، ووصفي، وتحليلي. وأهميّة البحث تكمن في تذوق هذا الكم الوافر من التعبيرات والدلالات البلاغيّة في القرآن الكريم، قال تعالى: (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود،1).

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

التراكيب:

قال ابن منظور: «وتراكب السحاب وتراكم: صار بعضه فوق بعض. وفي النوادر: يقال ركيب من نخل، وهو ما غرس سطرا على جدول، أو غير جدول. وركّب الشئ: وضع بعضه على بعض، وقد تركّب وتراكب... وشيء حسن التركيب. وتقول في تركيب الفص في الخاتم، والنصل في السهم: ركّبته فتركّب، فهو مركّب وركيب... وقيل الرّكبة مرفق الذراع من كل شيء، وحكى اللحياني: بعير مستوقح الركب، كأنه جعل كل جزء منها ركبة ثم جمع على هذا، والجمع في القلة: ركبات» (ابن منظور، 1994م).

الوجه:

قال ابن منظور: «الوجه: معروف، والجمع الوجوه. ووجه كل شيء مُستقبله، وفي التنزيل العزيز: فأينما تولوا فثمّ وجه الله... وقوله تعالى: فأقم وجهك للدين حنيفا، أي اتبع الدين القيم... والجمع أوجه ووجوه... وفي الحديث: لتسوّن صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم؛

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 73 3/6/16 11:44 AM

أراد وجوه القلوب... ووجه النهار: أوّله، وكان ذلك على وجه الدهر، أي أوّله... ووجوه القوم: سادتهم، واحدهم وجه، ووجه الكلام: السبيل الذي تقصده به... ورجل ذو وجهين، إذا لقي بخلاف ما في قلبه» (ابن منظور،1994م).

اللغة:

قال ابن منظور: «اللّغة: اللسن، وحدّها أنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم، وهي فعلة من لغوت أي تكلّمت، أصلها لغوة، وقيل أصلها لغي أو لُغو والهاء عوض، وفي المحكم الجمع: لغات، والنسبة لغوي، بضم اللام. ويقال هذه لغتهم االتي يلغون بها أي ينطقون» (ابن منظور،1994م).

ومن هنا يتضح أن المراد في مصطلح (التراكيب اللغوية المتعلقة بالوجه)، يقصد به وضع بعض التركيب أو التعابير التي أقرتها اللغة في سياقها المسند إلى الوجه، مع مراعاة وضعها المجازي، في ضوء فكرة النظم التي أسندت إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني.

وفيما يأتي عرضٌ لأهم التّعابير والتراكيب التي وردت في القرآن الكريم واصفةً الوجه، أو معبرةً به عن حالات إنسانية ومشاعر نفسية يمرّ بها أنواع البشر.

الانقلاب على الوجه:

ورد التعبير بالانقلاب على الوجه في معرض حديث القرآن الكريم عن الذين يعبدون الله على حرف، ويكون إيمانهم مهزوزا، في قوله تبارك وتعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الحج، 11).

تصفُ هذه الآيةُ الكريمةُ الذين يعبدون الله على حرف، ويعيشون في قلقٍ واضطراب في دينهم، مُذبذبين في أفكارهم، لا يستقرُّ لهم موقفٌ، ولا يهدأُ لهم بال، كالذي يكونُ على طرف من العسكر، فإن أحسّ بظفرٍ وغنيمةٍ قرَّ واطمأنَّ، وإن بدت أمارات الهزيمة، وتوالت جيوش الخوف فرّ وطار على وجهه، ويكون بذلك قد خسر دنياه وآخرته؛ خسر دنياه لأنّه يخرج من سجلّ المؤمنين فيفقد الكرامة والعزّة، وأهلية الشهادة، والإمامة والقضاء، ولا يبقى دمُه مصونا، ويخسر الآخرة فيفوته الثّواب الدّائم، ويحصل له العقاب الأبدي، وذلك هو الخسران المبين.

والفعل (انقلب) مُطاوع (قلبه) أي: أكبّه على وجهه، وألقاه على عكس ما كان عليه بأن جعل ما كان أعلاه أسفله؛ فالانقلابُ مُستعمَلٌ في حقيقته، والكلام من قبيل التّمثيل، وحرف الاستعلاء هو الملائمُ لتمثيل حال هذا الإنسان المتردد بحال مَن هو على حرف(ابن

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 74 3/6/16 11:44 AM

عاشور، د.ت.) والذي يعنينا أنَّ الآية الكريمة صوّرت المُذبذبين في العقيدة، الذين يقيسون العقيدة بميزان الصّفقات التّجاريّة، بمَن يتأرجحُ في عبادته كما يتأرجحُ مَن يكونُ على طرف الشّيء؛ فهو مُعرَّضٌ للسّقوط في أيّ لحظة؛ فإن أصابه خيرٌ دنيويّ من صِحّة وغنى ومنافع اطمأنَّ به، وثبت على ما هو عليه ثباتا ظاهريا لا قلبيا كما هو شأنُ المؤمنين الصّادقين، وإن أصابته فتنةٌ أو شرٌّ ارتدّ ورجع عن عبادته ودينه إلى الكفر.

تقلُّبُ الوجه في السّماء:

وقد وردت آيات - في سورة البقرة - عن تقلُّب وجه رسول الله في السّماء تشوُّفًا إلى أمر الله تعالى له بتغيير توجُّهه في الصَّلاة، من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام.

قال تعالى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) (البقرة، 144).

والمعنى: قد شاهدنا يا محمد، تردُّدَ وجهك وتسرُّعَ نظرك إلى السّماء تطلُّعًا إلى نزول الوحي عليك، وتوقُّعًا لما ما أُلقِيَ في روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعيًا منك لاستمالة العرب إلى الدُّخول في أحضان الإسلام، ومخالفة اليهود « فالحديث في هذا الدرس يكاد يقتصر على حادث تحويل القبلة، والملابسات التي أحاطت به، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته، والأقاويل التي أطلقوها من حوله؛ ومعالجة آثار هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين، وفي الصف المسلم على العموم» (سيد قطب، 1971م).

والتّقلّبُ مُطاوعُ (قلّبه) إذا حوّله، وهو مثل قلّبه بالتّخفيف، والمرادُ بتقليب الوجه في السماء الالتفات به وتحويله عن جهته الأصليّة، وهو هنا ترديدُه في السماء. والتّعبير بتقلّب الوجه أبلغُ من التّعبير بتقلّب العين، على أنَّ الوجهَ يُرادُ به التّوجّه، كقولك: وِجهتي إلى فلان(الراغب الأصفهاني، د.ت.). والتّقلّبُ كما جاء عند جمهور المفسّرين المراد به حقيقته، أي: تقليب الوجه وترديده في السَّماء كمن يتشوّف ويتطلّع إلى رؤية أمر معيّن، وثمة مَنْ يرى أنَّ عبارة: {تقلّب وجهك في السماء} من قبيل الكناية عن دعائه صلّى الله عليه وسلم، وفي ذلك تنبيهٌ على حُسن أدبه حيث انتظر ولم يسأل.

وقد فسّر الزمخشريّ {قد نرى} بقوله: ربّما نرى، ومعناه كثرة الرؤية(الزمخشري،1997م)، وعلّق صاحب حاشية الانتصاف على ذلك بقوله: وهذا من المواضع التي يُبالغ العربُ فيها بالتعبير عن المعنى بضدّ عبارته، ومنه: (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) (الحجر،2)، والمراد كثرةُ مودّتهم للإسلام في القيامة...وكذلك (وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) (الصف، 5)، ومُراده إظهار عنادهم بأنَّ علمهم برسالته يقينيٌّ مؤكّد، ومع

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 75 3/6/16 11:44 AM

ذلك يكفرون به (ابن المنير، 1995م). و(قد) في كلام العرب تفيد التّحقيق، وقد نظّر أهل المعاني (هل) في الاستفهام بـ (قد) في الخبر، فقالوا من أجل ذلك: إنّ (هل) لطلب التّصديق، فحرف (قد) يُفيد تحقيق الفعل بمنزلة (إنَّ) مع الأسماء(الأنصاري،1999م).

ولمّا كان علم الله بذلك مما لا يشكُّ فيه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتّى يحتاج إلى تحقيق الخبر به، كان الخبر به مع تأكيده مُستعملا في لازمه على وجه الكناية لدفع الاستبطاء عنه (ابن عاشور، د.ت.). وجيء بالمضارع مع (قد) للدّلالة على التّجدّد، والمقصود تجدّد لازمه ليكون تأكيدًا لذلك اللازم وهو الوعد؛ فمن أجل ذلك غلب على (قد) الدّاخلة على المضارع أن تكون للتّكثير مثل: ربما يفعل. وفعل التّقلّب ذاته ورد استعماله في قوله تعالى: (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا) (الأحزاب،66).

والمعنى: يومَ تُقَلَّبُ ملائكةُ العذاب وُجوهَ الكافرين في النّار بغير اختيارٍ منهم، أو يجعل الله ذلك التّقلّب في وجوههم لتنالَ النّارُ جميع الوجه كما يُقَلَّبُ الشّواءُ على المَشوى لينضجَ على سواء، ولَو كان لَفْحُ النّار مُقتصِرًا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعضُ الرّاحة في ذلك اليوم العصيب، حيث لا ينفعُ النّدم، ولا ينفعُ التّحسّر، يتنادون ويرفعون أصواتهم: يا ليتنا أطعنا الله، وأطعنا الرّسولا.

وتخصيص الوُجوه بالذّكر من بين سائر أعضاء جسم الإنسان، لأنَّ حرَّ النّار يُؤذي الوُجوهَ أشدَّ مِمّا يُؤذي بقيّةَ الجلد؛ لأنّ الوجه مقرُّ الحواسّ الرّقيقة، العيون، والأفواه، والآذان، والمنافس(ابن عاشور، د. ت.). وذكر الزّمخشريّ وأبو السعود العمادي أنَّ البيان القرآنيّ خصّ الوجه بالذِّكر؛ لأنّه أكرمُ الأعضاء في جسم الإنسان، علاوة على ما في ذكر تقليبه في النّار من تفظيعٍ للأمر وتهويل للخطب (الزمخشري،1997م).

وقد أضاف الفخر الرّازي نكتةً أُخرى لسبب اختيار ذكر تقليب الوجوه دون غيرها من الأعضاء؛ فالنّاس في الدّنيا يعملون المستحيل لصيانة وجوههم، والتّوقي لها، فإذا كانت وجوههم تُقلّبُ في النار يوم القيامة فغيرُها من الجوارح أولى بأن يذوق من أليم العذاب ما يُناسبه. حيث قال: «لمّا بيّنَ أنَّه لا شفيعَ لهم يدفَعُ عنهم العذابَ، بيّنَ أنَّ بعضَ أعضائهم أيضا لا يدفَعُ العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدّنيا؛ فإنَّ الإنسانَ يدفع عن وجهه الضّربة اتّقاء بيده؛ فإنَّ من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جُنَّةً أو يُطأطئ رأسه كي لا يُصيب وجهه، وفي الآخرة تُقَلَّبُ وجوههم في النّار فما ظنُّك بسائر أعضائهم التي تُجعَلُ جُنَّةً للوجه ووقايةً له؟» (الرازي،1420هـ).

هذا من حيث اختيارُ تقلّب الوجوه على غيرها من الأعضاء، أمّا من حيث التّركيبُ اللغويّ فإنَّ صيغة الفعل المضارع (تُقَلَّبُ) تدلُّ على تَكَرُّر عمليّة تقلُّبهم في النّار، وتجدّدها إمعانا

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 76 3/6/16 11:44 AM

في زيادة تعذيبهم، وفي مجيء الفعل ذاته بصيغة المبني للمجهول دلالةٌ على عدم الاهتمام بهم، والزّراية بحالهم؛ فلم يحفل البيانُ القرآنيّ بذكر مَن يتولّى تعذيبَهم وتقليبَ وجوههم في النّار، أهُم ملائكةُ العذاب، أم أنَّه جلّ جلاله هو الذي يتولّى تعذيبهم؟ ولا يخفى ما في هذا الإبهام من تهويل لأمر تعذيبهم والتّنكيل بهم.

كَبُّ الوجوه في النّار:

كبُّ الوجوه في النار هو إلقاؤها وطرحُها، والكبُّ جعلُ ظاهر الشّيء إلى الأرض، يقال: كببتُ الإناء أي: قلبته على وجهه، وكبّه على وجهه فانكبّ أي: صرعه (ابن منظور، 1994م). وقد جاء فعل الكبّ على الوجوه في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النمل، 90).

والمعنى: ومن يجيءُ يومَ القيامة بالسّيّئة غيرَ تائبٍ منها، وغيرَ ممحوّةٍ بالحسنة – وأسوأُ السّيّئات الشّركُ بالله تعالى- فإنّما يكون جزاؤهم أن يُكبّوا في النّار على وجوههم مقلوبين منكوسين، ويُقالُ لهم – تجريمًا لهم وتشهيرًا بهم {هلْ تُجزَوْنَ إلاّ ما كنتم تعملون}، فهذا جزاء أعمالكم السيّئة، ولا يحيق العمل السّيّء إلا بأهله.

ويميلُ المفسّرون إلى تفسير السّيّئة في هذا السّياق بالشّرك الذي لا يُغفَر، ولعلّ مِمّا يُؤيّدُ هذا المذهب من القول قوله: {فَكُبّت وجوههم في النّار}؛ لأنَّ هذا الجزاء الشّديد يتناسبُ مع معصية الشّرك بالله تعالى. والسؤال الذي يتكرَّرُ دائما: لماذ تُكبُّ الوجوه دون غيرها؟ والجواب أنَّ العرب تُعبّرُ بالجزء عن الكل، فيُعبّرون بالوجه عن الذات، وبالرَّقبة عنها، وبالرّأس أيضا، ويكون ذلك من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية. ويجوزُ أن يكون ذكرُ الوجوه إيذانا بأنَّهم يُكبّون على وجوههم فيها منكوسين، ويكون ذلك من قبيل التعبير الحقيقي (الزمخشري، 1997م).

والملاحظ من حيث بنية الكلمات أنَّ الفعل (كُبّت) جاء مبنيا للمفعول، ولم يأت ذكرٌ للزّبانية الذين يكبّونهم، وفي ذلك مزيد إهانة لهذا الصنف الذي ترسّخت في الشّرك أقدامه. وفي كبّهم على وجوههم في النّار زيادةُ إهانتهم وإذلالهم؛ لأنَّ الوجه هو مجمع المحاسن، ومحلّ المواجهة للغير. وجاء لفظ (وجوههم) جمعا مضافًا إلى ضمير الغائب (هم) الذي يعود على المشركين الذين يُكبّون في النّار، وبئس القرار.

وقد وردت مادة (كب) مكرّرة في قوله تعالى: (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ {94} وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ {95}) (الشعراء). والكبكبة تكريرُ الكبّ، وهو إلقاء الشّيء على وجهه، وفي تكرير مادة (كبكب) إشارة صريحة إلى تكرّر عملية السّقوط من علٍ، وكأنَّ المجرم الكافر إذا أُلقِيَ في جهنّم، ينكبُّ مرّةً بعد مرّة حتّى يستقرّ في قعرها (الرازي، 1420هـ).

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 77 3/6/16 11:44 AM

وقد يسأل متأمّلٌ في البيان القرآني عن سبب تكرير مادة (كبكب) في موضع آية الشعراء دون موضع آية سورة النمل، والجواب: أنَّ الأمر في آية النّمل يتعلّق بالمُشرك الذي أتى بسيّئة الشرك بالله تعالى، أمّا في آية سورة الشعراء فالحديث يتمحورُ حول المشركين الغاوين، ومعبوديهم من الأوثان والأصنام، وجنود إبليس أجمعين، فناسب أن يُكرَّرَ كبُّهم في النّار على وجوههم، وذلك يتناسب مع درجات جرمهم وإشراكهم وإضلالهم للآخرين.

علاوة على ما في لفظ (كُبكِبوا) من تصوير جِرسه لمعناه، وقد صوّر الأستاذ سيّد قطب هذا المعنى الصّوتي أحسن تصوير فقال: «وإنّنا لَنكادُ نسمع من جرس اللّفظ صوتَ تدفُّعِهم وتَكفُّئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام، وصوت الكركبة النّاشئ من الكبكبة، كما ينهارُ الجرف فتتبعه الجروف؛ فهو لفظٌ مُصوّرٌ بِجِرسه لمعناه»(سيد قطب، 1981م).

لَفْحُ النّار للوجوه:

ورد التَّعبيرُ بلفح النّار للوجوه في قوله تبارك وتعالى متحدِّثًا عن الذين خفّت موازينهم وخسروا أنفسهم في الدُّنيا والآخرة. قال تعالى: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ {103} تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ {104}) (المؤمنون).

والمُرادُ بلفح النّار للوجوه سفعُها بلهيبها المُحرق، وكُلوحُ الوجوه: تقلُّصُ الشّفتين عن الأسنان حتّى تبدُوَ الأسنان منكشفةً في مظهر بشعٍ مُنفِّرٍ. جاء في مختصر من تفسير الإمام الطبري: « تلفح: تسفع وجوههم، كالحون: (الكلوح) أن تتقلّص الشفتان عن الأسنان؛ كالرّاس المشيط بالنّار، قد قلصت شفتاه، وبدت أسنانه» (التجيبي، 1970م).

ومعنى الآيتين الكريمتين: ومن خفّت موازينُ أعماله الصالحة، فأولئك الذين خسروا أنفُسَهم بأن ضيّعوها وألقوا بها إلى التّهلُكة؛ فهم في جهنّم خالدون خلودًا أبديًّا، تسفعُ وُجوهَهُم النّار، وتلفحُها لفحًا شديدا حتّى تتقلّصَ شفتا كلّ واحد منهم، وتبدُوَ أسنانُهُ في منظر بشعٍ فظيعٍ مُنفّرٍ تشمئِزُّ منه النفوسُ السليمة، وهذا معنى الكُلوح لدى المُفسّرين.

وجملةُ {تلفَحُ وُجوهَهُم النَّارُ} مُستأنفةٌ، ويجوزُ أن تكونَ في محل نصب على الحال، أو خبرًا لأولئك، وخُصَّت الوُجوه بالوصف لأنَّها أشرفُ الأعضاء، وفي وصفها باللّفح والكلوح زجرٌ عن المعاصي المؤدّيّة إلى النّار.

أمّا من حيث جانبُ علم المعاني، فالفعل (تلفحُ) جاء في صيغة المضارع للدلالة على اللّفح المستمرّ المُتجدِّد لهم في النّار، وتمَّ تقديم المفعول (وجوهَهم) على الفاعل (النار) تعجيلا لمساءة الخاسرين، وإنبائهم بمصائر أعمالهم السيّئة التي يُمعِنون في اقترافها والتّلبُّس بها.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 78 3/6/16 11:44 AM

كفُّ النّار عن الوجوه:

جاء ذِكرُ عبارة (كفّ النّار عن الوجوه) في معرض حديث القرآن الكريم عن الذين لا يستطيعون كفَّ النّار عن وجوههم يوم القيامة. قال تعالى: (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) (الأنبياء، 39).

والمعنى أنَّ هؤلاء الكُفّارَ المستعجلين بالعذاب، لوْ أَنَّهم يعلمون ماذا ينتظِرُهم من سوء المصير، ومن شدّة العذاب المهين حين لا يستطيعون كفَّ النّار عن وجوههم، ولا عن ظهورهم، ولا ناصرَ لهم ينصُرُهم فيستنقِذُهم مِمّا هم فيه من العذاب المُؤلم المهين، لو يعلمون ذلك ويُدركونه حقَّ اليقين لرأوْا أمرًا يهولُهم، ويُفزِعُهم، ولسارعوا إلى التّوبة الصّادقة النّصوح. والكفُّ هو المنع، وكفَّ الرجلُ صاحبه عن مُجاوزته إلى غيره: منعه، وكفَّ الرّجلَ عن الأمر كفًّا: ردَّ عنه (ابن منظور، 1994م).

وجوابُ (لو) في هذا السياق محذوفٌ، والتّقدير: لو يعلمون حين لا يكفّون عن وجوههم ولا عن ظهورهم النار لما كانوا بتلك الصّفة من الكُفر والاستهزاء، ولعادوا إلى سواء الصّراط، والدّاعي إلى الحذف في مثل هذا المقام هو التّهويل والإبهام؛ فكلّما حُذِفَ الجواب سرح الفكر وجال في تخيُّل شتّى أنواع الأجوبة التي يمكن تقديرُها.

وسببُ ذكر عدم قدرة هؤلاء الكافرين الدّفع عن وجوههم خاصة هو أنّ الوجهَ أشرفُ عضوٍ في جسم الإنسان، وهو موضعٌ لحواسّه، وهو أحرصُ على الدّفاع عنه، ومع ذلك فإنَّه في ذلك اليوم القمطرير لا يستطيع كفَّ النّار عنه(ابن عطية،1422هـ). وقد تمَّ تقديمُ عدم استطاعة الكافرين كفَّ النّار عن وجوههم أوّلا، ثمّ عدم استطاعتهم الدّفع عن ظهورهم أيضا لشرف الوُجوه، ولِكونِ الدَّفع عنها أهمَّ من الدّفع عن غيرها من أعضاء جسم الإنسان (القاسمي، 1995م).

وأيضًا في ذِكْر عدم استطاعة الكافرين كفَّ النار عن ظهورهم بعد الحديث عن عدم استطاعتهم دفعها عن وجوههم احتراسٌ(العلوي، 2007م) لِدَفع توهُّم أَنَّهم قد يكفّونها عن ظهورهم إن لم تشتغل أيديهم بكفّها عن وجوههم. هذا، وقد أبدع ابنُ عاشور دون سابقيه من المفسّرين في تحديد معاد الواو في الفعل (يكفّون) حيث ذكر أنَّه يمكن أن تعود على الملائكة، ويمكن أن تعود على الكافرين أيضا. قال: «وضميرُ يكفّون فيه وجهان:

أحدهما: بدا لي أن يكون الضميرُ عائدا إلى ملائكة العذاب، فمعادُ الضمير معلومٌ من المقام، ونظائرُ هذا المعاد كثيرةٌ في كلام العرب، ومعنى الكفّ على هذا الوجه الإمساك وهو حقيقتُه، أي: حين لا يُمسك الملائكةُ اللَّفحَ بالنّار عن وجوه المشركين، وتكون هذه الآية في معنى قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 79 3/6/16 11:44 AM

وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) (الأنفال، 50)؛ فإنَّ ذلك ضربٌ بسياطٍ من نار، ويكون ما هنا إنذارًا بما سيلقونه يومَ بدرٍ، كما أنَّ آيةَ الأنفال حكايةٌ لما لقوهُ يومَ بدر.

والوجه الثاني: أن يكون ضميرُ (يكفّون) عائدًا إلى الذين كفروا، والكفّ بمعنى الدَّرء والسّتر مجازًا بعلاقة اللزوم، أي: حين لا يستطيعون أن يدفعوا النار عن وجوههم بأيديهم، ولا عن ظهورهم (ابن عاشور، د. ت.).

وهذا من التّوسّع الدّلالي؛ فالقرآنُ الكريمُ سيظلُّ خِصبًا مِعطاء، ومعينًا لا ينضبُ من المعاني والدّلالات المتجدّدة، يرى فيه اللاحقون ما لم يره السابقون، والكُلُّ واقفون عند شاطئ إعجازه.

الحشرُ على الوُجوه:

جاء ذِكرُ الحشر على الوُجوه في موضعين من الذِّكر الحكيم، في قوله تعالى: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا) (الإسراء، 97)، وقوله جلّ ثناؤه: (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (الفرقان، 34). والآيتان تُقرّران أنَّ الله تبارك وتعالى يجمعُ الكافرين الضّالّين يوم القيامة حين يخرجون من أجداثهم سراعا، ويجعلهم بقدرته – جلّت عظمته – يمشون على وجوههم، ويُسحَبون عليها، إهانةً لهم، وتعذيبا، ويكونون في هذه الحال عُميا لا يُبصرون، وبُكما لا ينطقون، وصمًّا لا يسمعون كما في آية الإسراء.

وثمة من عدَّ الحشر على الوجوه من قبيل التعبير الحقيقي مُستشهدين بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه الذي أورده عدد من رواة الحديث والمفسّرين، ونص الحديث هو: حدّثنا أنس بن مالك أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يُحشَرُ الكافرُ على وجهه؟ قال: «الذي أمشاه على رجليه قادرٌ على أنْ يُمشِيَه على وجهه» (ابن مالك، د.ت.). وثمة آخرون ذهبوا إلى اعتبار المشي على الوجوه استعارةً للذّلّة المفرطة والهوان والخِزي.

أمّا لماذا تمّ إمشاؤُهم على وجوههم فقد ذكر ابن عاشور أنَّ ذلك زيادةٌ في تعذيبهم من قبيل الجمع بين التّعذيب والتّشويه؛ لأنَّ الوجه أرقُّ تحمُّلا لصلابة الأرض من الرّجل، وهذا جزاء مناسبٌ للجُرم؛ لأنَّهم روّجوا الضّلالةَ في صورة الحق، ووسموا الحقّ بسمات الضّلال فكان جزاؤهم أن حُوِّلَت وجوههم أعضاءَ مشيٍ عوضا عن الأرجل (ابن عاشور،د.ت.).

من الناحية المعجميّة، يستوقفُ المتأمِّل في هذا التعبير توظيف فعل الحشر في هذا المقام المهين، وعادة يُستعمَلُ هذا الفعل لجمع الناس من مواضع متفرّقة إلى صعيد واحد، كحشر الجنود حشرًا، واستُعمِلَ الفعل ذاته في جمع الوحوش يوم القيامة: (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) (التكوير، 5). وتتجلّى عظمة المهيمن الجبّار ذي القُدرة المطلقة عندما يَحشرُ الكافرين الضّالّين

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 80 3/6/16 11:44 AM

على وجوههم في عرصات يوم القيامة، وجاء التّعبيرُ عنها في لغة القرآن واضحا في نون العظمة في قوله تعالى: {ونحشُرُهم}، كما يتجلّى ذلك في قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم السابق الذكر: «الذي أمشاه على رجليه قادرٌ على أن يُمشيَه على وجهه».

أمّا من الناحية البلاغية، فيستوقف الباحث تعدّي الفعل (حشر) بحرف الجر (على) المفيد للاستعلاء، وقد فسّر ذلك البلاغيون بأنّه من قبيل التّضمين، أي: تضمين الفعل (حشر) معنى الفعل (مشى). قال ابن عاشور: «ولما كان الحشرُ إلى موطنٍ واحدٍ يستدعي مشيَهم إلى ذلك المكان عُدِّيَ الحشرُ بحرف (على) لتضمينه معنى (يمشون)، وقد فهم النّاسُ ذلك من الآية فسألوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: إنَّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشِيَهم على وجوههم»(ابن عاشور، د.ت.).

سَوْءُ الوجوه:

ورد الحديث عن الإساءة إلى الوجوه في معرض خطاب الله تعالى لبني إسرائيل الذين تجبّروا في الأرض كرّاتٍ عديدةً في قوله تعالى: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا) (الإسراء، 7).

والمعنى: إن أحسنتم يا بني إسرائيل بفعل الطاعات فقد أحسنتم إلى أنفسِكم من حيثُ إنَّ ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات، وإن أسأتم بفعل المحرّمات أسأتم إلى أنفسِكم من حيثُ إنَّ بشؤم تلك المعاصي يفتحُ عليكم أبواب العقوبات؛ فإذا جاء وعدُ المرّة الثانية بعثنا عليكم عبادًا آخرين ليسوؤوا وُجوهَكم.

والفعل ساءه يسوءُه أي أحزنه، أي: ليجعلوا آثارَ المساءة والكآبة باديةً في وجوهكم، وقد أُوقِعَ فعلُ الإساءة على الوجوه؛ لأنَّ آثار الأعراض النّفسانية الحاصلة في القلب، إنّما تظهرُ على الوجه، فإن حصل الفرحُ في القلب ظهرت النّضرةُ والإشراقُ والإسفارُ في الوجه، وإن حصل الحزنُ والخوفُ في القلب ظهر الكُلوحُ والغبرةُ والسّوادُ في الوجه(الرازي، 1420هـ)؛ وذلك أنَّ الإنسانَ إذا قوي فرحُهُ انبسط روحُ قلبه إلى الأطراف فاستبشرَ وجهه، وإذا قوي غمُّه يختنقُ الرّوح في داخل قلبه فلا يسري أثرُهُ إلى الوجه؛ فمَساءةُ الوجه كنايةٌ عن الغمّ الشّديد فلهذا عُدّيت المساءةُ إلى الوجه في هذه الآية(زاده، 1999م). أمّا من الجانب التركيبي فقد حُذِفَ جواب الشرط (إذا)، والتقدير: فإذا جاء وعدُ الآخرة بعثناهم ليسوؤوا وجوهكم، وإنّما حسُن هذا الحذفُ لدلالة ما تقدّم عليه من قوله: (بعثنا عليكم عبادًا لنا) (الإسراء، 5).

نظير هذا التّعبير ورد في قوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ) (الملك،27)، أي: لما رأى المشركون وعدَ الله المتمثّل في عذاب الله

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 81 3/6/16 11:44 AM

قريبا بين أيديهم وعاينوه، سيئت وجوههم: أي ساءت رؤيةُ الوعد وُجوهَهم بأن غشيتها الكآبةُ، وارتسمت على ملامحها ظلمةُ الكسوف والقترة. وهذا شاهدٌ آخرُ على أنَّ كلّ ما يعيشُه الإنسانُ في وجدانه، تبدو ملامحه وأماراتُه على صفحة وجهه؛ فهم قد ساءهم العذاب فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدلُّ على كفرهم وجحودهم، سواء أكان المرادُ بالعذاب تعذيبَهم بأيدي المؤمنين يومَ بدر أو قُرْبَ عذاب الآخرة كما أفهمهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذلك. وجاء فعل (سيئت) بصيغة المبني للمفعول لإفادة العموم؛ فقد يكون ساءهم عذاب يوم بدر أو ساءهم قربُ عذاب يوم القيامة أو غير ذلك من أنواع التّعذيب.

خُلُوُّ الوجه:

ورد التّعبير بخلُوِّ الوجه في معرض تخاطب إخوة يوسف فيما بينهم عندما سوّلت لهم أنفُسُهم بأن يقتلوا يوسف أو يُبعدوه عن والِدهم حتّى يفرغ لمحبّتهم، ويهتمّ بأمرهم حسب زعمهم. قال جلّ شأنه: (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) (يوسف، 9).

والمعنى: تآمروا فيما بينهم قائلين: اقتلوا يوسف أو اقذفوه في أرض بعيدة مجهولةٍ حتّى يموت؛ فإنّكم إن فعلتم ذلك خلُصَت لكم مَحبّةُ أبيكم دون أن يُنازِعكم فيها أحدٌ، فيُقبل عليكم بكليّته، ويكون كلُّ توجُّهه إليكم، وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف بقتله أو بتغريبه عن أبيه قومًا صالحين في دينكم بأن تتوبوا إلى الله بعد ذلك فيقبل توبتكم، وصالحين في دُنياكم بعد أن خلت المنغّصاتُ التي كان يُثيرها وجودُ يوسف بينكم.

والخلوّ معناه الفراغ؛ خلا المكانُ يخلو خلوًّا وخلاء إذا لم يكن به أحد، وتمّ اختيارُ الوجه في هذا السِّياق لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأنَّ الرَّجل إذا أقبل على الشّيء أقبل بوجهه، ويجوز أن يراد بالوجه الذات (الزمخشري، 1997م)، واللام في قوله (لكم) لام العلّة، أي: يخل وجه أبيكم لأجلكم.

وعبارة {يخلُ لكم وجهُ أبيكم} واقعةٌ في جواب الأمر {اقتلوا يوسف أو اطرحوه}، وهي كناية عن خلوص محبّته لهم لأنَّه يدلُّ على إقباله عليهم؛ إذ الإقبال يكونُ بالوجه، والإقبال على الشيء لازمٌ لخلوص المحبّة له، ففيه انتقال من اللازم إلى الملزوم بمرتبتين؛ فالوجهُ بمعناه المعروف، والكنايةُ تلويحيّة (السبكي، 2003م)، وإذا كان الوجه بمعنى الذات كان الانتقالُ بمرتبةٍ فهو كنايةٌ إيمائيّة. ويجوز أن يكون التّعبير كناية عن التّوجّه والتّقيُّد بنظم أحوالهم، وتدبير أمورهم، وذلك لأنَّ خلوَّه لهم يدلُّ على فراغه عن شغل يوسف عليه الصلاة والسلام، فيشتغل بهم، وينظم أمورهم (الخفاجي، د.ت.).

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 82 3/6/16 11:44 AM

ضربُ الوجوه والأدبار:

جاء ذكرُ ضرب الوجوه والأدبار في قوله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) (محمد، 27)، والسياقُ يتحدّث عن المرتدّين الذين كرهوا ما نزّل الله، وكانوا يتآمرون ضدّ الإسلام وأهله، فقال الله تعالى لنبيّه مُعجِّبًا من أمرهم: فكيف، وماذا يكون من شأنهم إذا توفّتهم ملائكةُ الموت على هذه الحالة المهينة يضربون وجوههم وأدبارهم، فلقد كانوا في الدّنيا حريصين على الحياة، يتوَقَّوْنَ أن يُصيب الأذى وجوههم وأدبارهم، فهاهم أولاء يتلقّون الضّرب المهين المؤلم على وجوههم وفي أدبارهم، وفي اختيار الوجوه والأدبار للضّرب من حيث نكصوا عن القتال؛ فالمقاتلُ يتوقّى أن يضربه عدُوُّه من خلفه، ويتوقّى أن يضربه في وجهه، وهي صورة فظيعةٌ للمهانة التي تلحق بهم في آخر صلتهم بهذه الحياة الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ مهين.

وقد توقّف الفخر الرازي عند سبب اختيار الضّرب على الوجوه والأدبار فقال: «ثمة لطيفةٌ وهي أنَّ القتالَ في الحال إن أقدم على المبارزة، فربّما يهزم الخصم ويَسْلَمُ وجهُه وقفاه، وإن لم يهزمه فالضّرب على وجهه إن صبر وثبت، وإن لم يثبت وانهزم، فإن فات القِرنَ فقد سلم وجهُه وقفاه، وإن لم يفُته فالضّربُ على قفاه لا غيرُ، ويوم القيامة لا نُصرةَ له ولا مفرّ، فوجهُه وظهرُهُ مضروبٌ مطعون، فكيف يُحتَرَزُ عن الأذى ويختار العذاب الأكبر» (الرازي،1420هـ). وجملة {يضربون وجوههم وأدبارهم} حال من فاعل {توفّتهم}، ويجوز في الفاء المتّصلة باسم الاستفهام (كيف) وجهان:

الوجه الأول: أن تكون للتّفريع، ويكون ما بعدها مُفرّعا عمّا قبلها لبيان ما سيلحقُهم من العذاب عند الموت، وهو استهلالٌ لما يتواصلُ من عذابهم عند مبدأ الموت إلى استقرارهم في العذاب.

الوجه الثاني: أن تكون فاء الفصيحة، والتّقدير: إذا فرّوا من القتال هلعًا وخوفًا فكيف إذا توفّتهم الملائكةُ.

والمرادُ بوعيدُهم بأَنَّهم سيُعجَّلُ لهم العذابُ من أوّل منازل الآخرة، وهو حالةُ الموت، ولما جُعِلَ هذا العذابُ مُحقّقًا وُقوعُه رُتِّبَ عليه الاستفهام عن حالهم استفهاما مُستعملا في معنى تعجيب المخاطَب من حالهم عند الوفاة، وهذا التّعجيبُ مُؤذِنٌ بأَنَّها حالةٌ فظيعةٌ غيرُ معتادة؛ إذ لا يُتَعَجَّبُ إلاّ من أمرٍ غير معهود، والسياقُ يدلّ على الفظاعة (ابن عاشور، د.ت.).

□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□□□□□□□ □□□□.indd 83 3/6/16 11:44 AM

الانكبابُ على الوجه:

ذكر البيانُ القرآنيّ فعلَ الانكباب على الوجه عندما قارن بين مشيتي المؤمن والكافر، فالمؤمن يمشي في طريقه إلى ربّه على هدى وبصيرة، والكافر يمشي يخبط خبط عشواء منكبّا على وجهه لا يدري إلى أيِّ مقصد هو متّجه.

قال تعالى: (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الملك، 22).

والآية استفهام لافتٌ للأنظار فحواه: أَفمن يمشي أيّها النّاسُ مُكِبًّا على وجهه لا يُبصِرُ ما بين يديه، وما عن يمينه وشماله، أهدى وأكثرُ استقامةً أمَّنْ يمشي مشيًا سويّا على نورٍ من ربّه وعلى طريق مستقيمٍ لا عِوجَ فيه؟ هل يستويان مثلا؟ والكبّ هو القلب، كبّ الشّيءَ يكبُّه وكبكبه أي: قلبه (ابن منظور، 1994م).

وقال أحمد بن فارس: «الكاف والباء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمع وتجمّع، لا يشِذُّ منه شيءٌ، ومنه: كببتُ الشّيءَ لوجهه أَكُبُّه كبًّا، وأكبَّ فلانٌ على الأمر يفعله، والكبكبةُ: أن يتدهورَ الشيءُ إذا أُلقيَ في هُوَّة حتّى يستقرّ، فكأنّه تردَّد في الكبّ» (ابن فارس، 2001م).

وذكر الزّمخشري أنَّ (أكبّ) معناه: دخل في الكبّ وصار ذا كبٍّ (الزمخشري، 1997). تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ (أكبّ) في هذا السياق خلافٌ للباب لأنَّ الأصل أن تكون صيغة (أفعل) تفيد التّعدي. ويجوز أن يُرادَ بمن يمشي مُكبًّا على وجهه الأعمى الذي لا يهتدي في مشيته إلى سبيل؛ فيعتسف؛ فلا يزالُ ينكبُّ على وجهه مرّةً بعد مرّة.

هذا، وقد اختلف المفسّرون في حمل الكلام على حقيقته أو على مجازه؟ أي: هل المشيُ في هذا السّياق حقيقةٌ أو مجاز؟ فَمَن قال: إنَّ هذا الوصفَ ينطبقُ على الكافرين والمؤمنين في الآخرة؛ فالمشيُ عنده من باب الحقيقة على شاكلة قوله تعالى: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا) (الإسراء، 97)، ومن قال: هذا تمثيلٌ لحال الكافر الجاهل الضّال الذي يخبطُ في دنياه خبطَ عشواء، ويمشي على غير استقامةٍ؛ فالمشيُ عنده من قبيل المجاز (الرازي، 1420هـ).

«والمرادُ تمثيلُ المشرك والموحّد بالسّالِكَيْن، والدِّينين بالمَسْلَكين، ولعلّ الاكتفاءَ بما في الكبّ من الدّلالة على حال المسلك للإشعار بأنَّ ما عليه المشرك لا يستأهلُ أن يُسمّى طريقًا، أي: فلذلك ذكر المسلك في الثاني دون الأوّل» (القاسمي، د.ت.). و(أهدى) مشتقٌّ من الهدى، وهو معرفة الحقّ والسّير على طريقه، والمفاضلة هنا ليست مقصودةً؛ لأنَّ الذي يمشي مُكبًّا على وجهه، لا شيءَ عنده من الهداية أو الرّشد إطلاقًا حتّى يُفاضلَ مع غيره، وفيه لونٌ من التّهكّم بهذا المكِبّ على وجهه (طنطاوي، 2007م). والآيةُ مثلٌ

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 84 3/6/16 11:44 AM

ضربه الله للمؤمن والكافر؛ فالكافرُ مثَـلُهُ فيما هو فيه كمثل من يمشي مُكبًّا على وجهه، أي: يمشي منحنيًا لا مستويًا على وجهه فهو لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهبُ، بل هو تائهٌ حائرٌ ضالٌّ، أهذا أهدى أمَّن يمشي منتصبَ القامة على صراط مستقيم؟ والمذكور في الآية هو المشبّه به، والمشبّه محذوفٌ لدلالة السياق عليه، وقد فصّل ابنُ عاشور في المشبّه والمشبّه به في كلّ جملةٍ من جمل الآية فقال: «فالآيةُ تشتملُ على ثلاث استعارات تمثيليّة؛ فقوله {يمشي مُكبًّا على وجهه} تشبيهٌ لحال المشرك في تقسّم أمره بين الآلهة طلبًا للذي ينفعُهُ منها الشّاكّ في انتفاعه بها، بحال السّائر قاصدًا أرضًا معيّنةً ليست لها طريقٌ جادّةٌ فهو يتتبّعُ بنيّات الطريق الملتوية، وتلتبسُ عليه، ولا يُوقِنُ بالطريقة التي تبلغُ إلى مقصده فيبقى حائرا مُتوسِّمًا يتعرَّفُ أقدامَ النّاس وأخفاف الإبل فيعلم بها أنَّ الطريق مسلوكةٌ أو متروكة.

وفي ضمن هذه التّمثيليّة تمثيليّةٌ أخرى مبنيّةٌ عليها بقوله: {مُكِبًّا على وجهه} بتشبيه حال المتحيّر المتطلّب للآثار في الأرض بحال المكبّ على وجهه في شدّة اقترابه من الأرض. وقوله {أمَّن يمشي سويًّا} تشبيهٌ لحال الذي آمن بربٍّ واحدٍ، الواثق بنصر ربّه وتأييده، وبأنّه مُصادِفٌ للحق، بحال الماشي في طريق جادّة واضحةٍ لا ينظرُ إلاّ إلى اتّجاه وجهه فهو مُستوٍ في سيره» (ابن عاشور، د.ت.). هذا، وقد حصل في التّعبير إيجاز حذفٍ حيث حُذِفَ وصفُ الطريق بالالتواء في التّمثيل الأول لدلالة مقابلته بالاستقامة في التمثيل الثاني.

إسلامُ الوجه وتوجيهه لله تعالى وإقامته للدّين:

من المعاني المتقاربة في لغة القرآن الكريم إسلامُ الوجه لله، وتوجيهُه له جلّ ثناؤه، وإقامته للدّين أيضا، ومن المقرّرات في البيان القرآني أنَّ القرآن الكريم لا يستبدلُ كلمةً بمثيلتها، ولا يستعيضُ عن لفظة بأختها إلاّ إذا كان ثمة فرقٌ في المعنى والدّلالة ومقتضى الحال، وإلاّ نسبنا إلى كلامه تعالى سمة الانتقاء لمجرد الانتقاء، وهذا لغوٌ من الحديث تعالى الله عنه علوًّا كبيرا؛ فما معنى إسلام الوجه لله، وما معنى توجيهه له؟ وما معنى إقامة الوجه للدين؟ وما مقتضياتُ استعمال كل واحد من هذه الألفاظ في المكان الذي خُصّ به؟ قال تعالى: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام، 79).

ومعنى وجّهت وجهي: أقبلتُ بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني وغير ذلك مِمّا يعمّه المعنى المعبَّرُ عنه بوجهي(ابن عطية، د.ت.).

وهنا نتساءل: هل المقصود توجيه الوجه لله تعالى على وجه الحقيقة أم المراد شيء آخر؟

ذهب الفخر الرازي إلى أنّ الكلام لا يُمكن حمله على ظاهره، بل المرادُ وجّهت عبادتي

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 85 3/6/16 11:44 AM

وطاعتي، وسبب هذا المجاز أنَّ من كان مُطيعًا لغيره منقادًا لأمره؛ فإنَّه يتوجَّهُ بوجهه إليه، فجُعِلَ توجيه الوجه إليه كناية عن الطاعة (الرازي، 1420هـ).

وثمة لطيفةٌ أُخرى في هذا التّركيب القرآني، وهي تعدّي الفعل (وجّه) في هذا المقام بحرف الجرّ (اللام)، ولم يقل: وجّهت وجهي إلى الله؛ لأنّه جلّ ثناؤه مُتعالٍ عن الحيّز والجهة، بل المرادُ توجيه القلب إلى طاعته وعبوديّته، ففي ترك كلمة (إلى) والعدول عنها إلى اللام دليلٌ ظاهرٌ على كون المعبود متعاليا عن الحيّز والجهة (الرازي،1420هـ).

ويميلُ ابن عاشور إلى اعتبار الجملة تمثيلاً حيثُ شُبِّهت حالةُ إعراض إبراهيم عليه السلام عن الأصنام، وقصده إلى إفراد الله تعالى بالعبادة بمن استقبل بوجهه شيئا وقصده وانصرف عن غيره. وأتى بالموصول في قوله {للذي فَطرَ السماوات والأرضَ} ليُومئ إلى علّة توجّهه إلى عبادته؛ لأنَّ الكواكب من موجودات السّماء، والأصنام من موجودات الأرض؛ فهي مفطورةٌ لله تعالى.

أمّا إسلامُ الوجه لله تعالى فجاء في مواضع من الذِّكر منها قوله تعالى: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة،112)، وقوله جلّ شأنه: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (النساء، 125)، وغيرها من المواضع.

ومعنى الفعل (أسلم) انقاد وخضع واستسلم، وأصل الوجه العضو المقابل من الإنسان، فاستُعيرَ للمقابل من كلّ شيء، حتّى قيل: واجهته ووجَّهته، وقيل للقصد: وجه، وللمقصد وِجهةٌ، ولمّا جُعِلَ ذلك للقصد أُضيف تارةً إلى القاصد، وتارةً إلى المقصود كقولهم: أردتُ بكذا وجه الله (الراغب الأصفهاني، 2003م)، وقد حُمِلَ على ذلك (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) (الرحمن، 27). وفي تخصيص عضو الوجه بالذّكر، يكاد يُجمعُ المفسّرون على أنَّ اختيار الوجه سببُهُ أنَّه أشرفُ الأعضاء، ومجمَعُ المشاعر، وموضِعُ السّجود، ومظهرُ آثار الخضوع الذي هو من أخصّ خصائص الإخلاص أو توجُّهه، وقصده بحيث لا يلوي عزيمته إلى شيءٍ غيره (أبو السعود، د.ت.).

وجملة القول: إنَّ عبارة (أسلم وجهه لله) يراد منها التّعبيرُ عن شدّة الامتثال؛ لأنَّ أسلم بمعنى ألقى السلام وترك المقاومة، ويجوز أن يُراد بالوجه حقيقته أو أن يراد به الذّات من قبيل التعبير بالجزء عن الكل لأنّه أشرف ما فيها.

وإذا جئنا إلى إقامة الوجه للدّين فإنَّ التعبير بهذه العبارة ورد في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يونس،105)، وقوله جلّ ثناؤه: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 86 3/6/16 11:44 AM

اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم، 30).

والمراد في الآيتين واحد هو إقامة المسلم نفسه وحياته على دين الله تعالى، مستقيمًا عليه، غيرَ مُعوَجٍّ إلى يهوديّة ولا نصرانيّة ولا عبادة وثن (الطبري، 2000م). والإقامةُ جعلُ الشَّيء قائما، وهي هنا مُستعارَةٌ لإفراد الوجه بالتّوجُّه إلى شيءٍ معيّن لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر غيره. واللام للعلّة، أي: لأجل الدّين، فيصير المعنى: محِّضْ وجهك للدّين، ولا تجعل لغير الدّين شريكا في توجُّهك، وهذه التّمثيليّة كنايةٌ عن توجيه نفسه بأسرها، لأجل ما أمر الله به من التّبليغ وإرشاد الأُمّة.

وإصلاحها (ابن عاشور، د.ت.)، وقريبٌ منه قوله تعالى: (فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ) (آل عمران، 20).

وقد أوضح الفخر الرازي أنّ هذا التّعبير من باب الكناية، أي: الكناية عن توجيه العقل بالكليّة إلى طلب الدّين؛ لأنَّ من يريد أن ينظر إلى شيءٍ نظرا بالاستقصاء؛ فإنَّه يُقيمُ وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير؛ لأنَّه لو صرفه عنه ولو بالقليل فقد بطُلَت تلك المقابلة، وإذا بطلت تلك المقابلة فقد اختلّ الإبصار؛ فلهذا السّبب حسُن جعلُ إقامة الوجه للدّين كناية عن صرف العقل بالكليّة إلى طلب الدّين (الرازي، 1420هـ).

وذلك أنَّ الوجه إذ يستقيمُ على طريق فإنّه لا يلتفتُ إلى طرقٍ أخرى، فإقامة الوجه للدّين توجيه الوجه إليه كلّه، دون أن يخطف خطفة بصر إلى غيره.

وحاصل القول: إنّ التّراكيب الثلاثة هي في جملتها كناية عن إخلاص المسلم وتوجّهه بقلبه ونفسه إلى خالقه سبحانه، واستقامته لدينه الحنيف بحيث لا مجال لأن يلتفت إلى مخلوق أبدا، وهي من قبيل العبارات المتقاربة، ونظرا لتعدّد ورودها في مواضع مختلفة في القرآن الكريم؛ فإنّ الجزم بدلالاتها والفروق بينها يصعب تحديده، ويتطلّبُ دراسة كلّ سياق على حدة والتأمل في مقتضيات القول فيه.

تولية الوجه:

يستعمل العرب الفعل (ولّى) مُعَدًّى بالظرف (نحو) أو (شطر)؛ فمن كلامهم: ولّى رحله نحو جهة كذا، وولّى وجهه شطر كذا، ومن ذلك قول البُحتريّ حينما توالت الأحزانُ على قلبه، وجثمت فوق صدره:

حضرَتْ رَحلِيَ الهُمومُ فولّيتُ إلىَ أبيض المدائن عَنْسي (البحتري، د.ت.)

وقد جاء فعل (التّولّي) في القرآن الكريم في مواضعَ منها قوله تعالى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 87 3/6/16 11:44 AM

فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (البقرة، 144).

وشَطْرُ المسجد الحرام أي: ناحيته وتلقاؤه، وهو ظرف مكان، وشطر الشَّيء نصفُه، والمعنى في الآية الكريمة: قد شاهدنا ـ يا محمد ـ وعلِمنا تردُّدَ وجهك وتسريحَ نظرك إلى السَّماء تطلُّعًا إلى نزول الوحي عليك، وتوقُّعًا لِما أُلقِيَ في رَوْعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعيًا منك وراء استمالة العرب إلى الدُّخول في أحضان الإسلام، ومُخالفة اليهود الذين كانوا يقولون: إنَّه يُخالفُنا في ديننا ويتَّبعُ قبلتَنا، وها نحنُ قد أجبناك إلى ما طلبت، وأعطيناك ما سألت، ووجَّهناك إلى قبلةٍ تُحِبُّها وتميل إليها: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسجِدِ الْحَرَامِ }، أي: فاصرف وجهك وحوِّله نحو المسجد الحرام وجهته، وحيثُما كنتم وأينما وُجِدتم أيُّها المسلمون، في بَرٍّ أو بحرٍ فوَلُّوا وجوهكم تِلقاءَ المسجد الحرام ونحوه.

ومن البيّنات الواضحات في الشّرع أنَّ المقصودَ هو توليةُ الشّخص جسمه كاملا في حالة الصّلاة تِلقاءَ المسجد الحرام ونحوه، وليس المقصودُ توليةَ الوجه وحده؛ لأنَّ الواجب على الشَّخص أن يستقبل القبلة بجُملته لا بوجهه فقط، وهذا من قبيل التعبير بالجزء وإرادة الكلّ؛ وإنَّما خصَّ الوجه بالذكر لأنَّه أشرف الأعضاء، وبه تتميَّز الأشخاص (النيسابوري، د.ت.)، ولعلَّ تخصيص الوجه بالذِّكر للتنبيه على أنَّه الأصل المتبوع في التوجُّه والاستقبال (البضاوي، د.ت.).

والمُلاحَظُ أنَّ الله تبارك وتعالى خصَّ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم بالخطاب تعظيمًا لجنابه، وإيذانًا بإسعاف مرامه {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ}، ثم عمَّمَ الخطاب للمؤمنين مع التَّعرُّض لاختلاف أماكنهم تأكيدًا للحكم، وتصريحًا بعمومه لكافَّة العباد من كلِّ حاضرٍ وبادٍ، وحثًّا للأمَّة على المتابعة(أبو السعود، د.ت.). والفاء في قوله: {فَوَلِّ وَجْهَكَ}: لتفريع الأمر بالتَّولية على الوعد الكريم، وقوله: (وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) تنصيصٌ على تعميم حُكم استقبال الكعبة لجميع المسلمين بعموم ضميرَيْ (كنتم) و(وجوهكم) لوقوعها في سياق عموم الشَّرط بحيثما، و(حيثما) لتعميم أقطار الأرض لئلاّ يُظَنَّ أنَّ قوله: (فَوَلِّ وَجْهَكَ) خاصٌّ بالنبي صلَّى الله عليه وسلَّم، ولمَّا خيف إيهام أن يكون هذا الحُكمُ خاصًّا به أو أن تُجزِئ فيه المرَّةُ أو بعض الجهات كالمدينة أو مكَّة أُريدَ التَّعميم في المكلَّفين وفي جميع البلاد (ابن عاشور، د.ت.).

صكُّ الوجه:

وردت حركةُ صكّ الوجه في معرض حديث القرآن الكريم عن امرأة إبراهيم سارة التي كانت قد بلغت سنَّ الكهول وهي عاقرٌ، وبشّرتها الملائكةُ وبعلها إبراهيمَ بغلامٍ فتعجّبت من ذلك؛ فقال القرآن عنها: (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) (الذاريات، 29).

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 88 3/6/16 11:44 AM

والصّكّ في اللغة الضّرب (ابن منظور، 1994م)، وصكّت وجهها أي: لطمت خدّيها بيديها أو بأطراف أصابعها فِعلَ المُتَعجِّب المندهش، وقالت: عجوزٌ عقيم، أي: أألِدُ وأنا عجوزٌ عقيم؟! أو أتلدُ عجوزٌ عقيم؟! وقد دلّ السِّياقُ على الفعل وأداة الاستفهام المحذوفين.

وأيضا دلّ على ذلك ما جاء في سورة هود: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) (هود، 72). والمعنى أنّ امرأةَ إبراهيم حين سمعت بهذا الخبر المفاجئ من ضيفه المكرَمين المتَمَثِّل في تبشيرها بولد بعدَ كِبَرٍ وعُقمٍ، أخذتها حالٌ من الدّهش والعجب، فأقبلت إليهم في ولولةٍ وصياحٍ وانزعاجٍ، وقد ضربت يديها على وجهها أو على جبهتها ثم قالت: عجوزٌ عقيم؟! فكيف يكون هذا؟! وكيف تلد عجوز؟ وكيف تلد من اجتمع مع شيخوختها العُقم؟!

من ناحية علم البيان، يمكن القول: إنَّ الوجه في هذا السياق مجازٌ عن الجبهة من باب ذِكْرِ الكُلّ وإرادة الجزء، والعبارة كلّها {فصكّت وجهها} كناية عن التّعجّب؛ فقد عبّرت حركةُ لطم الوجه عن شديد تعجُّبها، وبالغِ حيرتها، وهي عادةٌ من عادات النّساء عندما يقعن في حيرةٍ مُدهشةٍ مُعَجِّبةٍ.

تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ البيانَ القرآنيّ صوّرَ لنا شِدّة تعجّب امرأة إبراهيم بثلاثة عناصر، يُكمِّلُ بعضُها بعضًا، وهي إقبالُها في ولولةٍ وصُراخ، وقد حمل هذا المعنى {فأقبلت امرأتُه في صرّة}، ولطمُها لوجهها، وقولها {عجوزٌ عقيم؟}. هذا، ومن نافلة القول تقريرُ أنَّ هذه الحركة الجسمية (لطم الوجه باليدين) هي حركةٌ جسميّةٌ عالميّةٌ معروفةٌ ومعهودةٌ لدى كلّ شعوب العالم، ومن الحركات المُتَّفَق على دلالتها التّعجّبيّة.

طَمْسُ الوجوه:

ورد حديثٌ عن طمس الوجوه وردِّها على أدبارها في خطاب القرآن الكريم لليهود الذين تفنّنوا في إيذاء نبيّ الإسلام والمسلمين معه بكلّ أصناف المكر والخداع والشّتم والإيذاء النّفسي والمادّي، وفي سورة النساء توعّدهم البيانُ القرآنيّ شرَّ وعيد في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) (النساء، 47).

والآيةُ تأمرُ أهلَ الكتاب بأن يُؤمنوا بالقرآن الكريم الذي جاءت كتبُهم مُصدِّقةً به، ومُبشّرةً بمجيئه، من قبل أن يمسخهم الله تعالى ويطمسَ وُجوههم بأن يُزيلَ معالِمَها، بمَحْو العينين، والحاجبين، والأنف، والفم، والأُذنين، فتُصبحَ وجوهُهم بعد محو معالمها كأقفائهم أو تُصيبهم اللّعنةُ كما حاقت بأسلافهم الذين اعتدوا في السبت فمُسِخوا قردةً وخنازير. والطّمسُ إزالةُ الأثر بالمحو، ومفازةٌ طامسةُ الأعلام، أي: ممحوَّةُ المعالم لا يُهتَدى فيها، ويُقالُ: طمس

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 89 3/6/16 11:44 AM

الطّريق إذا درس، وقد ورد فعل الطَّمس في القرآن بمعنى إزالة الصُّورة في قوله تعالى: (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ) (المرسلات،8)، وقوله جلّ ثناؤه: (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ) (يونس، 88)، بمعنى أزِلْ صورَتها (شهاب الدين، 1994م).

وهل الطّمسُ مُستَعمَلٌ في حقيقته أم في معناه المَجازي؟ فإذا حُمِلَ اللّفظُ على معناه الحقيقي فالمعنى: آمِنوا بما نزّلنا من قبل أن نَمحُوَ تخطيطَ صُور الوجوه من عينٍ وحاجبٍ وأنفٍ وفم، فنجعلها على هيئة أدبارها وهي الأقفاء، وهذا على حمل معنى الفاء على التّسبيب، أمّا إذا كانت بمعنى التّعقيب فالمعنى أنّهم تُوعِّدوا بعقابين أحدُهما عقيبَ الآخر، الأوّل: طمسُ الوجوه، والثاني: ردُّها على أدبارها بعد طمسها (الزمخشري، 1997م).

وإذا حُمِلَ الطّمس على معناه المجازي يكون الطّمسُ بمعنى القلب، أي: من قبل أن نُغيّرَ وجوهًا فنسلبَ وجاهتها وإقبالها، ونكسوَها لباس المهانة والصّغار، وتكون الوجوه هي رؤساءَهم ووُجهاءَهم، أو نردّهم من حيث جاءوا إلى أذرعات الشّام وأريحا وما جاورهما من مساكن اليهود قديمًا، والطَّمسُ بمعنى إزالة آثار اليهود من بلاد العرب، ومحو أحوالهم منها مستعمَلٌ في معناه المجازي، ويكون استعمال الوجوه بمعنى الرؤساء والوجهاء استعارة تصريحيّةً، شُبِّهوا بها لشرافتها ووجاهتها.

وهذا تهديدٌ شديدٌ وفظيعٌ؛ فالبشرُ يتميّزون بوجوههم الحسنة ومعالمها المختلفة، ووجه الإنسان أشرفُ ما فيه، ومجمعُ محاسنه، وموضعُ حواسّه، فإذا طُمِسَ وأزيلت معالمُه وأصبح وجهُ الإنسان كقفاه، فما تكون صورتُه؟ فالتّهديد بهاتين الحركتين الجسميّتين: طمس الوجوه، وردّها على أدبارها، صورةٌ قبيحةٌ ومُنفِّرة وفظيعةٌ تناسبُ طبيعة اليهود الملتوية، وخبايا نفوسهم الشّرّيرة، ولا غروَ في ذلك ولا عجب؛ فهم الذين اعتدوا في السَّبت، وهم الذين يُبدّلون الكلمَ عن مواضعه، وهم الذين ديدنُهم الشّتم والإيذاء والإفسادُ في الأرض، وهم الذين رمَوْا مريم بالبُهتان المبين، وقتلوا أنبياء الله الصّالحين.

الوجوه الخاشعة العاملة النّاصبة:

سبقت الإشارةُ إلى أنَّ الوجهَ هو عنوانُ ما يجدُهُ صاحِبُه من نعيمٍ أو شِقوة، وسرور أو جزع، وحالاتُ الوجوه تُنبِئُ عن أصحابها، وفي سورة الغاشية جاء وصفٌ لصنفين من الوجوه: الوجوه الخاشعة العاملة النّاصبة، والوجوه النّاعمة التي يذوقُ أصحابُها طَعْمَ الرّضى، ولذّةَ النَّعيم المُقيم. قال تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ {2} عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ {3}) (الغاشية).

والخُشوع هو الذِّلّةُ والخضوع، وكلُّ مُتضائلٍ ساكنٍ يُقالُ له خاشع، وخشع: رمى ببصره نحو الأرض، وغضّه، وخفض صوته، وخشع بصرُه: انكسر (ابن منظور، 1994م). وجملةُ {وجوهٌ يومئذٍ خاشعة} من الناحية التّركيبيّة جملةٌ مُستأنفةٌ هي جوابُ سؤالٍ مُقَدَّرٍ

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 90 3/6/16 11:44 AM

كأنَّه قيل: ما هو؟ أو مستأنفةٌ استئنافًا نحويًّا لبيان ما تضمّنته من وجود وجوه في ذلك اليوم مُتَّصِفةٍ بهذه الصّفة المَذكورة، وجاء لفظ (وجوهٌ) مرتفعًا على الابتداء، وإنْ كان نكرةً لوقوعه في مقام التّفصيل والتّنويع (أبو السعود، د.ت.)، والتّنوين في (يومئذٍ) عوضٌ عن مضافٍ محذوفٍ تقديره: وجوهٌ يومَ غشيان الغاشية تكون خاشعة.

أمّا من ناحية علم البيان فالمرادُ بالوُجوه أصحابُها حيثُ يُجْعَلُ إسنادُ الخُشوع للوُجوه من قبيل المجاز العقلي، وخُصّت الوُجوهُ بالذِّكر لأنّها أشرفُ أعضاء الإنسان، وهي التي تظهرُ عليها علاماتُ الفرح والسُّرور أو علاماتُ الحُزن والفزع والخشوع. والمقصودُ بالخُشوع أنَّها تبدو عليها آثارُ الهوان والانتكاس والخِزي، ومن صفاتها أيضًا أنَّها عاملةٌ ناصبةٌ، أي: مُكلَّفةٌ بالعمل الشّاقّ المُرهِق الذي تنصبُ له في هذا اليوم العسير. قال الإمام ابنُ عطيّة في تفسير (ناصبةٌ): « لأنَّها تكبّرت عن العمل في الدُّنيا فأعملها في الآخرة في ناره» (ابن عطية، د.ت.)، وقال الزّمخشري : «تعملُ في النّار عملا تتعبُ فيه، وهو جرُّها السَّلاسل والأغلال» (الزمخشري، 1997م).

يُلاحَظُ أنَّ صفات الوجوه في هذا اليوم العسير صيغت على بِنية اسم الفاعل التي تدلُّ على ثبات الوصف وتأصّله في صاحبه، وفي هذه الصِّفات زيادةُ توبيخ لأهل النّار؛ لأنَّهم لمّا تركوا في الدُّنيا الخشوع لله ربّ العالمين، ولم يُؤدّوا ما فرض الله تبارك وتعالى عليهم من عبادات وتكاليف؛ فإنَّهم شَقُوا في آخرتهم فيما فيه ذُلُّهم وخِزيُهم ونصيبُهم.

وقد ذهب الشّهابُ الخفّاجي إلى أنَّ لفظَيْ (خاشعة) و(عاملة) من باب الاستعارة التّهكُّميّة؛ فمعنى (خاشعة) ذليلة، ولم تُوصَفْ بالذُّلّ ابتداءً لما في وصفها بالخُشوع من الإشارة إلى التّهكّم، وأنَّها لم تخشع في وقتٍ ينفعُ فيه الخُشوعُ، وكذا جعلُها عاملةً تهكُّمٌ أيضا، فالظّاهرُ الاستعارةُ فيهما (الخفاجي، د.ت.).

أمّا ابنُ عاشور فقد ذهب إلى تحليلها بأنَّها من باب الكناية؛ فالوجوه كنايةٌ عن أصحابها؛ إذْ يُكَنّى بالوجه عن الذّات، وقرينةُ ذلك هي قوله تعالى: (لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ) (الغاشية، 6) حيثُ جُعِلَ ضميرُ الوجوه جماعة العقلاء (ابن عاشور، د.ت.).

الوجوه النّاعمة:

بعد حديث مَطلَع سورة الغاشية عن وجوه الكافرين وسوء عاقبتهم، شرع في وصف وجوه أهل النَّعيم فقال جلّ شأنه: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ {8} لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ {9}) (الغاشية).

والمعنى: وجوهٌ كثيرةٌ تكون يوم غشيان الغاشية ذاتَ بهجةٍ وحُسنٍ ورُواء، وتكونُ مُتنعّمةً في الجنّة بما أعطاها الله تعالى من خيرٍ عميم، وأجرٍ كريم لعملها الصّالح في الدّنيا. وقد فُصِلَت جملةُ (وجوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ) عن الجمل قبلها إيذانًا بكمال التّبايُن بين مضمونيهما

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 91 3/6/16 11:44 AM

(الألوسي، 1999م)؛ فلمّا تمَّ الحديث عن وجوه أهل النّار، واكتمل وصفُها بالخشوع والذِّلّة والنّصب، جاء دورُ الحديث عن وجوه أهل النّعيم والنَّضرة، وكأنَّ سائلا سأل: هلْ من حديث الغاشية ما هُو مُغايِرٌ لهذا الهول؟ أي: ما هو أُنسٌ ونعيمٌ لقومٍ آخرين؟

ولهذا النّظم صارت هذه الجملةُ بمنزلة الاستطراد والتّتميم لإظهار الفرق بين حالَي الفريقين، ولِتعقيب النِّذارة بالبِشارة؛ فَموقِعُ هذه الجملة المُستأنَفَة موقعُ الاعتراض، ولا تنافيَ بين الاستئناف والاعتراض وذلك مُوجِبٌ لفصلها عمّا قبلها (ابن عاشور، د.ت.). ووصفُ (ناعمة) يمكن أن يكون مُشتَقًّا من (نَعُمَ) بضم العين (ينعُمُ) الذي مصدرُهُ (نُعومة) وهي اللّينُ وبهجةُ المرأى وحُسنُ المنظر، ويجوز أن يكونَ مُشتقًّا من (نَعِم) بكسر العين، (ينعَمُ) بفتحها إذا كان ذا نَعمَةٍ أي: حسن العيش والتّرف (ابن منظور، 1994م).

أمّا من حيثُ علمُ البديع فالمقطع الأوّل الواصفُ لوجوه أهل النّار الخاشعة الذّليلة العاملة النّاصبة تُقابِلُها وجوهُ أهل الفلاح النّاعمة النّاضرة التي تكون لسعيها راضية، وبين اللّوحتين مُقابلةٌ فنّيّةٌ بديعيةٌ رائعةٌ، والحُسنُ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ، وفي عُنُقِ الحسناء يُستَحسَنُ العِقدُ.

الوجوه النّاضرة والوجوه الباسرة:

ومن المقابلات القرآنية الجميلة التي وردت في تصوير وجوه المؤمنين في جنّات النّعيم، ووجوه الكافرين المُستقرّين في العذاب المُقيم قولُه جلّ شأنُه: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ {22} إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ {23} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ {24} تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ {25}) (القيامة).

ومن دلالات مادة (نضر) الحُسنُ والبهجةُ والجمال، يُقال: نَضُرَ وجهُ فلان: حسُنَ من النَّعْمة، ونضَّرَ الله وجهَه: إذا حسّنه، ونضُرَ اللّونُ والشّجرُ والورَقُ ينضُرُ نضرةً، والنّاضِرُ النّاعِم، والنَّضِرُ الحسَنُ من كلّ شيء، ويقال للّون إذا كان مُشرِقًا: ناضِرٌ مثل: أخضرُ ناضِرٌ، وشجرٌ ناضر، وروضٌ ناضر(ابن منظور، 1994م). وقد تعدَّدت ألفاظُ المُفسّرين في معنى كلمة (ناضرة) في الآية الكريمة فقالوا: مسرورة، وناعمة، ومُضيئةٌ، ومُسفِرة، ومُشرِقة، ومبتهجة (الرازي، 1420هـ).

أمّا وصف (باسرة) فمعناه كالِحةٌ لجهامة هيئاتها، وهول ما تراه هناك من الأهوال وأنواع العذاب والخُسران، والبُسور شِدّة كلوح الوجه وعبوسه من الكراهة (السّمين، د.ت.).

والآياتُ السّابقة تتحدّثُ عن صنفين من النّاس يكونون في يوم القيامة العصيب، صنفِ المؤمنين، وتكونُ وجوههم نضرةً حسنةً مُشرِقةً، تعلوها بهجةُ السّرور وإشراقةُ السّعادة، وهذه الوجوهُ تنظرُ إلى ربّها نظرةَ سرور وحبور، بحيثُ تراه – سبحانه- بذاته، وكما يريد أن تكون رؤيته – جلّ ثناؤه- من غير تكييف ولا تجسيم ولا تمثيل، ولا ثبوت جهة.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 92 3/6/16 11:44 AM

وثمة وُجوهٌ أُخرى، وهي وجوه الصِّنف الثاني، تكونُ في ذلك اليوم كالحةً شديدةَ العُبوس، وهي وجوه الكافرين والفاسقين عن أمر ربّهم، وهذه الوجوه تعتقدُ جازمةً أن يُفعَلَ بها فاقرةٌ تفقِرُ عظامَ الظهر، وتُهلِكُ صاحِبَها.

وقد جاءت كلمة (وجوه) في الآيتين نكرةً للتّنويع والتّقسيم، والتّنوين في كلمة (يومئذ) تنوينُ عِوَضٍ عن جملة محذوفة، والتقدير: وجوه يومَ إذْ برِقَ البصر، وخسف القمر...

وجملةُ {وجوهٌ يومئذٍ ناضِرةٌ} كنايةٌ عن فرح وسرور أصحاب تلك الوجوه ونعيمهم، يُناظرُها قوله تعالى مُتحدّثًا عن أهل السّعادة: (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) (المطففين، 24)؛ لأنَّ ما يحصُلُ في النّفس من انفعالات يظهرُ أثرُه في الوجوه. وبين (ناضرة) و (ناظرة) جناس مُحرَّفٌ قريبٌ من التّام، وأعيد لفظ (يومئذٍ) تأكيدا للاهتمام بالتّذكّر بذلك اليوم (ابن عاشور، د.ت.).

هذا، علاوةً على ما في التّناظر بين الصّيغ الأربعة المستعملة التي جاءت على بناء اسم الفاعل (ناضرة، وناظرة، وباسرة، وفاقرة) من جمالِ تناظرٍ، وحُسْنِ إيقاعٍ، وروعةِ تناسُقٍ.

الوجوه المُسفرة الضّاحكة المستبشرة وما يقابلها:

نظير الأوصاف التي نُعِتت بها الوجوه في سورتي الغاشية والقيامة، جاء وصفها في سورة عبس بقوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ {38} ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ {39} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ {40} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ {41} أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ {42})(عبس).

تكون وجوه الفريق الأوّل مُسفرَةً من الإسفار، والعرب يقولون: أسفر الصُّبحُ إذا أضاء، وأسفر وجهُ فلان إذا حسُنَ، وضاحكةً من السّرور بما أعطاها الله من النّعيم والكرامة، ومُستبشرةً متهلِّلةً لما ترجو من الزيادة، والسين والتاء في الوصف للمبالغة (الرضي، د.ت.)، وهذه الوجوه هي وجوه المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقدّموا من العمل الصالح ما ملأوا به صُحُفَ أعمالهم. أمّا فريق الكفرة الفجرة فتكون وجوهُهم مُسوَدّةً حزينةً تغشاها ظُلمةٌ وسوادٌ وكُدورةٌ لما أتى أصحابُها من فسوق، وما اقترفوا من آثام ومعاصٍ، وقد أجمع المفسرون على تفسير الغبرة بالغُبار الذي يعلوها، والقترة بسواد الدُّخان (الزمخشري،1997م). وجاءت كلمة (وجوهٌ) نكرةً في الموضعين للتّنويع أي: أحوالُ المُكلّفين منقسمةٌ: فريقٌ منهم تبيضُّ وجوههم وهم السُّعداءُ، وفريقٌ منهم تسودُّ وجوههم وهم الأشقياء، وعُصاةُ المؤمنين يدخلون في زمرة الأوّلين أو حالُهم مسكوتٌ عنها كما هو في أكثر المواضع، وذلك التّنويع هو مُسوِّغُ وقوعهما مبتدأ نكرة (القونوي،2001م).

وإعادة لفظ (يومئذ) لتأكيد الرّبط بين الشّرط وجوابه، ولطول الفصل بينهما، وقد أغنت

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 93 3/6/16 11:44 AM

إعادةُ (يومئذ) عن ربط الجواب بالفاء(ابن عاشور، د.ت.). وقوله {عليها غبرةٌ} أبلغ من (مُغبَرّة) لأنَّه يُفيدُ استعلاء الغُبار عليها بحيث لا يُحيط الكلام ببيانه، وقدّم ذكْرَ أصحاب الوجوه المُسفرة الضاحكة المستبشرة على وجوه الكفرة الفجرة لشرافتهم، ولظهور أنَّهم المؤمنون البررةُ، لم يُبيَّنوا كما تمّ تبيين الفريق الثاني ووَسْمُه بسمتي الكفر والفجور زيادةً في تقبيحه وتفظيع شأنه.

أمّا من ناحية علم البيان فقوله {ضاحكة} كنايةٌ عن السّرور، وإسناد الضّحك والاستبشار إلى الوجوه مجازٌ عقليّ؛ لأنَّ الوجوهَ محلُّ ظهور الضّحك والاستبشار؛ فهو من إسناد الفعل إلى مكانه.

الوجوه المبتسِمة:

التّبسُّمُ هو أوّلُ الضّحك، ومرآةُ النّفس الإنسانية المنشرحة والمستبشرة، وهو لغةٌ عالميَّةٌ، ونوعٌ من أنواع الجمال الرّاقي، وسلوكٌ إنسانيّ يدلّ على تقبّل الآخر مع صفاءٍ وانشراحٍ وسُرور، ويُعرّفه المعجميون بأنّه انبساطُ الوجه، وبُدُوُّ الأسنان من سرور النّفس، وهو مُختصّ بالإنسان وليس يوجد في غيره من الحيوان (ابن منظور،1994م).

وقد ورد فعل التّبسُّم في القرآن الكريم في معرض ذكر حديث النّملة مع أخواتها النّمال، واستماع نبي الله سليمان عليه السلام لقولها وتعجّبه من ذلك وتبسّمه.

قال تعالى: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {18} فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ {19}) (النمل).

سُرَّ سليمان عليه السلام من قول النّملة حيثُ تعجّب لما دلَّ عليه قولها من ظهور رحمته، ورحمة جنوده وشفقتهم، وشهرة حاله وحالهم في باب التّقوى، وأيضا سُرَّ بما آتاهُ الله مِمّا لم يُؤتِ أحدًا من إدراكه بسمعه ما يهمسُ به النّمل لإخوته (الزمخشري، 1997م).

والملاحظُ بيانيا أنَّ فعل التّبسّم جاء بصيغة (تفعّل) التي تدلّ في أصل الوضع الصّرفي على معان منها المُطاوعة والتّكلّف والاتّخاذ والعمل المتكرّر في مهلة(الرضي، د.ت.)، ولكنّه في هذا السياق يدلّ على معنى فعله المُجرّد بسِم كما هو جليٌّ من خلال سياق الآية. وقد جاء عطفُ الفعل (تبسّم) بالفاء على الفعل (قالت) للدّلالة على أنّ سليمان عليه السلام تفاعل مباشرةً مع ما سمع، وجاءت الحال المبيّنة لنوع التّبسّم، موضّحةً أنَّ تبسُّمَه كان من باب السرور والضّحك، لا من باب تبسّم المغاضِب أو المُجامِل أو الهازئ.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 94 3/6/16 11:44 AM

جاء في البحر المحيط: «ولما كان التّبسّم يكون للاستهزاء وللغضب، كما يقولون: تبسّمَ تبسُّمَ الغضبان، وتبسَّمَ تبسُّمَ المستهزئ، وكان الضّحك إنّما يكون للسّرور والفرح أتى بقوله (ضاحكا)» (ابن حيان،2001م). وثمة فائدةٌ أخرى نجنيها من ورود الحال المبيّنة بعد الفعل، وهي أنّ نبيّ الله سليمان شرع في التّبسّم آخذا فيه، وقد تجاوزه إلى حدّ الضّحك (الزمخشري، 1997م).

وجملةُ القول في هذا المقام: إنَّ البيان القرآني لمْ يُغفِلْ التَّعبيرَ الوجهي الخاص بالتَّبسُّم، بل صرَّحَ به، ووظَّفه أحسنَ توظيف، وبيَّنَ من خلال ذِكرِه أنَّه تعبيرٌ بشريٌّ طبيعيّ، يظهرُ على قسمات وصفحات وجوه المسرورين المُستبشرين في كلّ زمان ومكان.

الوجوه العابسة:

ورد ذِكرُ مادة (عبس) في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع: في قوله تعالى مُعاتبا رسوله الحبيب بسبب إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم: (عَبَسَ وَتَوَلَّى) (عبس، 1)، وفي قوله جلّ شأنه واصفا الوليد بن المغيرة: (ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ) (المدثر، 22)، وفي وصف شدّة يوم القيامة: (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) (الإنسان،10).

والعُبوس هو التّقطيب بين العينين، وتقطُّبُ الوجه واربدادُه، ويومٌ عابسٌ وعبوسٌ أي: شديد، وهو صفةٌ لأصحاب اليوم، أي: يومٌ يُعَبّسُ فيه، والعابسُ: الكريهُ المَلقى الجَهمُ المُحيّا (ابن منظور،1994م).

ذكر المفسّرون(الطبري، د.ت.) أنَّ عبد الله بنَ أمِّ مكتوم رضي الله عنه، جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده صناديدُ قريش: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، وأبو جهل بنُ هشام، والعبّاسُ بنُ عبد المُطّلب، وأميّةُ بنُ خلف، والوليدُ بنُ المغيرة، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُنشغلاً بِدعوتهم إلى الإسلام رغبةً في إسلامهم وإسلام مَن وراءَهم من أقوامهم، وفي حين مُحاورته السّاخنة معهم، أتاه عبد الله بن أمّ مكتوم ولم يتبيّن مدى انشغالِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالذين كان يدعوهم نظرًا لكونه أعمى، فطلب من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يُعلّمه مِمّا علّمه الله تعالى، وألحّ في السّؤال حتّى بدا الغضبُ والعُبوس في وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، حينها أنزل الله تبارك وتعالى هذا العِتابَ القُرآنيّ الشّفّاف، مُسلّطا الضّوء على عبوس وجه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إنصافًا لعبد الله ابن أم مكتوم الذي كان لا يرى. وفي هذه الآية جملةُ ملاحظ بيانية منها:

أوّلا: مخاطبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بلفظ الغائب حيث لم يقل: عبستَ وتولّيتَ، إنّما جاء التعبير بصيغة الغائب {عبس وتولّى}، وقد انقسم المفسّرون في تحديد دلالات ذلك إلى قسمين:

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 95 3/6/16 11:44 AM

الفريق الأول: يرى أنّ في مخاطبته بصيغة الغائب مُبالغةً في العَتب، لأنَّ في ذلك بعضَ الإعراض، وقال كثيرٌ من الصحابة ومن بينهم عائشة رضي الله عنها: لو كان رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم كاتِمًا شيئا من الوحي لكتم هذه الآيات، وآيات قصّة زينب بنت جحش (ابن عطية، د.ت.). جاء في الكشّاف في المعنى ذاته: «في الإخبار عمّا فرط منه، ثمّ الإقبال عليه بالخطاب دليلٌ على زيادة الإنكار» (الزمخشري، 1997م).

الفريق الثاني: يرى أنَّ في إسناد فعل العبوس إلى الغائب مزيدَ عنايةٍ وتلطُّفٍ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فلم يشأ الله تبارك وتعالى أن يُفاجئه بخطاب العتاب المباشر، إنّما تلطّف في الإبانة عن الحدث بالتعبير عنه بصيغة الغيبة أولا، ثمّ تعريف النّبيّ مَن هو المقصود بالعتاب ليكون الوقع خفيفًا، وفي ذلك يقول ابن عاشور: «ولمّا كان صُدورُ ذلك من الله لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم، لمْ يشأ الله أن يُفاتِحه بما يتبادرُ منه أنَّه المقصودُ بالكلام، فوجَّهه إليه على أسلوب الغيبة ليكونَ أوّلُ ما يقرعُ سمعه باعثًا على أن يترقَّبَ المعنيّ من ضمير الغائب؛ فلا يُفاجِئُهُ العِتاب، وهذا تلطُّفٌ من الله برسوله صلّى الله عليه وسلّم ليقعَ العِتابُ في نفسه مُدرّجًا وذلك أهونُ وقعًا» (ابن عاشور، د.ت.).

والذي يترجّح لديّ هو قول الفريق الثاني حيث إنّ التّحدّث عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلم بصيغة الغائب ليس من قبيل الإعراض عنه، بل هو من باب التّلطّف والتّرفّق به على شاكلة (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) (التوبة، 43).

ثانيا: استعمال الفعل الماضي (عبس) دليلٌ على ثبوت الواقعة، وحُدوثها، فقد تمّ العبوس وانقضى، ولكنْ ثمة خطأٌ غيرُ مقصود وقع فيه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم باجتهاده، وقد وجبت مُعالَجته.

ثالثا: تسليط الضّوء على صفة الوجه وهي العبوس، ولم يقل القرآن مثلا: غضب وتولّى، وقد كان منه غضبٌ صلّى الله عليه وسلّم؛ وذلك لأنَّ البيان القرآنيّ يُركِّزُ على ما لم يره الأعمى وهو العُبوس إنصافًا له، علاوةً على ما في التعبير بالعبوس من توافق مع الطّبيعة البشرية التي ينعكسُ فيها كلُّ شيءٍ يشعر به الإنسان من فرحٍ وسرور أو من حُزن وكآبة أو من غضبٍ وجزع في وجه الإنسان؛ فكلّ شعور باطنيّ يشعرُ به الإنسان، فالوجه مِرآةُ انعكاسه.

رابعًا: افتتاحُ السّورة بفعلين مُتحمِّلين لضمير لا معادَ له في الكلام فيه تشويقٌ لما سيُورَدُ بعدهما، والفعلان يُشعران بأنَّ المَحكيَّ حادثٌ عظيم(ابن عاشور، د.ت.).

خامسا: حُذِف مُتعلّقُ الفعل (تولّى) لظهور أنّه تولٍّ عن الذي مجيئه هو سبب هذا العتاب.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 96 3/6/16 11:44 AM

سادسا: جاء ذكر عبد الله بن أم مكتوم بنعت (الأعمى) ترقيقًا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ ليكونَ العتابُ ملحوظًا فيه أنَّه لما كان صاحبَ عاهةٍ خَلقيّة مؤثّرة في تصرُّفاته، كان جديرًا بأن يحظى بمزيد عناية من نبيّ الرّحمة صلّى الله عليه وسلّم، وفي ذلك يندرج قولُ أبي السّعود العمّادي: «والتّعرُّضُ لعنوان عماه إمّا لتمهيد عُذره في الإقدام على قطع كلامه عليه الصّلاةُ والسلام بالقوم، والإيذان باستحقاقه بالرّفق والرّأفة» (أبو السعود، د.ت.).

سابعًا: نلحظ الالتفات (العلوي، 2007م) القويّ الذي يهزّ النّفوس بالسّؤال: {وما يُدريك؟}، وهو التفات يعملُ على تجلية المعاني الخفيّة وراء هداية النّفوس؛ فالله أعلم حيثُ يجعلُ رسالاته، وهو أعلم بمن يهتدي من خلقه، ومن لا يهتدي منهم، وما على الرّسول إلا البلاغ المبين.

نظيرُ فعل العبوس في هذا المقام، ما ورد في سورة المدثر في وصف وجه الوليد بن المغيرة الذي نظر في أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين طلب منه قومُه ذلك، وفكّر، وقدّر، واجتهد في إيجاد مغمزٍ يطعنُ به في شخص رسول الله صلّى الله عليه وسلم فخارت قواه البشرية الاجتهادية، وارتدَّ فِكرُه حسيرًا، فعبس وجهه، وقطّب ما بين عينيه، وكلح واسودّ واربدّ.

قال جلّ ثناؤه: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ {18} فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ {19} ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ {20} ثُمَّ نَظَرَ {21} ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ {22} ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ {23} فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ {24} إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ {25}) (المدثر).

والذي يعنينا في هذا المقام، أنَّ البيان القرآنيَّ أولى الوجه البشريّ عنايةً خاصّةً؛ فهو مظهرُ العواطف، ومرآةُ المشاعر، ومُتَجلّى الانفعالات البشريّة، وهو محلّ العبوس والتّقطيب، ومحلّ الاستبشار والسرور، ومحلّ نضرة النّعيم، والفرح المقيم.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 97 3/6/16 11:44 AM

الخاتمة:

نخلص - من كل هذا -إلى أن القرآن الكريم كتاب الله سبحانه وتعالى، وأن بلاغته بلغة المدى البعيد، وخاصة في وصف التراكيب اللغوية المتعلقة بالوجه في شتى دلالاتها التركيبية، واللغوية والبلاغيّة. وكان وصفاً رائعا جذّاباً فاق طوق البشر، وهذا ما جعل العرب يقفون حيرى أمام هذه البلاغة الربانية. حيث جاء بأسلوب فصيح لم يعهده العرب من قبل، بل انحدرت ألفاظه، ومعانيه، وهي تحمل بين جنباتها، حلاوة التأليف، وانسجام العبارات، وفصاحة الكلم، وبيان الصورة، وحسن النظم. وبذلك كان معجزة السماء في الأرض. (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (الشعراء).

نتائج البحث:

1. تحليلُ جميع العبارات التي رأى الباحثُ أنَّها من صلب الموضوع تحليلاً بلاغيا بالاعتماد على مباحث علم البيان والمعاني والبديع، والتّنقيب في بطون التفاسير البلاغية للقرآن الكريم.

2. تجلية مواطن الجمال في التّعبير القرآني عند استعماله لأعضاء جسم الإنسان، والدِّلالات التي تحمِلُها، وبيان الفروق بين ذِكر المعنى الذِّهني منفردًا، وبين ذكره مُجسَّدًا.

3. تمّت البرهنةُ العمليّة على السَّبق القرآني في علم الاتّصال غير اللّفظي، وكيفية استعمال البيان القرآني لتقنيات تعابير الجسم، وتوظيفها للتَّعبير عن مكنونات نفوس الناس وخواطرهم وأحاسيسهم وأفكارهم.

4. استطاع البحثُ أن يُفرِّقَ بين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي لأعضاء جسم الإنسان، وأشار إلى الفروق الجمالية الدّقيقة التي ما كان لقارئ القرآن أن يتذوَّقَها لولا ورودها في ذلك الثّوب اللغوي الأخّاذ.

5. كشفَ البحثُ عن أنموذج من الثّروة البيانية البلاغية العظيمة التي تحتوي عليها تفاسيرُ القرآن الكريم التي انبرى أصحابُها، وسلكوا فيها دروبَ البلاغة العربية العميقة المسالك، مُستخرجين دقائق الاستعمال القرآني، دون الانتقاص من شأن مصادر البلاغة العربية الأصول التي ورد فيها تحليلٌ للعبارات المتعلّقة بجسم الإنسان، ولكن ليس بالكمّ الهائل الذي تزخرُ به تفاسير القرآن الكريم.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 98 3/6/16 11:44 AM

المصادر والمراجع:

ابن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية، الطبعة الأولى، د.ت.).

ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، (بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، عام 1422هـ).

ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، عام 2001م.).

ابن منظور، لسان العرب، اعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط ونديم مرعشلي،(بيروت: دار لسان العرب-بيروت، مطابع أوفست تكنوبرس الحديثة).

ابن المُنيِّر، أحمد بن المُنير الإسكندري، حاشية الانتصاف فيما تضمّنه الكشاف (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ/ 1995م).

أبو حيان ، البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون،(بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، عام 2001م.).

أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،(بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.).

البحتري، ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثالثة).

الأنصاري، ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: بركات يوسف هبود (بيروت، دار الأرقم، ط1، 1999م/ 1419هـ).

بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ، تحقيق عبد الحميد هنداوي، (المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط1، 1423هـ/ 2003م.).

الخفاجي، حاشية الشهاب على تفسير البضاوي المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي، (بيروت: دار صادر، د.ت.).

الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الثالثة، عام 1420هـ).

الراغب، الحسين بن محمد بن المفضل، ت 406هـ، تفسير الراغب الأصفهاني، تحقيق: عادل بن علي الشّدي (الرياض، دار الوطن للنشر، الرياض، 1424هـ / 2003م).

الراغب، الحسين بن محمد بن المفضل، ت 406هـ، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي (بيروت: لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.).

الرضيّ الأستراباذي، محمد بن الحسن، ت 686هـ، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرون (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، د ت).

الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، د.ت.).

سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة العاشرة، عام 1981م.).

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 99 3/6/16 11:44 AM

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، ت 1069هـ ، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي (بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، د.ت.).

شهاب الدين أبو العباس السمّين، عمدة الحُفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق محمد باسل عيون السود، (بيروت:، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، عام 1994م.).

شهاب الدين الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق محمد أحمد الأمد، وعمر عبد السلام السلامي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، عام 1999م.).

عصام الدين إسماعيل القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، تحقيق عبدالله محمود محمد عمر، (بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، عام 2001م).

الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، عام 2000م.).

القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق رياض عبدالله عبد الهادي،(بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، عام 1995م.).

محمد بن مصلح الدين زادة، حاشية محي الدين زادة على تفسير البيضاوي، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، (بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، عام 1999م.).

محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط، (القاهرة: دار السعادة، عام 2007م. د.ت.).

النجيبي،أبو يحي محمد بن صمادح، مختصر من تفسير الإمام الطبري، حققه وعلق عليه محمد حسن أبو العزم الزفيتي، (مصر:الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الطبعة الأولى، عام 1390هـ).

النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق حمزة النشرتي،وآخرون، (القاهرة: المكتبة القيمة،الطبعة الثانية، د.ت.).

يحيي بن حمزة العلوي، ت 749هـ، الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز، تحقيق: د. بن عيسى باطاهر، (دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2007م.).

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 100 3/6/16 11:44 AM

Linguistic Structures Related to the Face in Quranic Verses

Nasreldin I. Ahmed Hussien

Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences - International Islamic University, Malaysia

Kuala Lumpur - Malaysia

M'Mhamed M. Safi

American School of Creative Sciences

Sharjah - UAE

Abstract

This paper deals with the linguistic structures that are related to human body which occur frequently in the Glorious Quran. The paper focuses on the structures related to the head and the forelock. Many expressions are used in the Quran to indicate the movement of the human body and its different postures to express people's hidden desires, intentions, emotions, and both voluntary and involuntary actions. The paper investigates the different rhetorical devices used in the Quranic verses to express bodily movements and their significance.

Keywords: Linguistic expressions, faces, bodily features, rhetorical devices, Quranic expressions.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 101 3/6/16 11:44 AM